الأثر الديموغرافي للغزو المغولي على المجتمع العراقي

م. د. حسين غسان جابر العنبكي
المديرية العامة لتربية ديالى
wertgfds7654@gmail.com

الملخص:

يتناول هذا البحث أثر الغزو المغولي للعراق في القرن السابع للهجرة/الثالث عشر للميلاد، مبينًا أنه لم يكن حدثًا عسكريًا عابرًا، بل كارثة شاملة غيّرت البنية السكانية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية للدولة العباسية .فقد أدى الغزو إلى مجازر مروعة في بغداد والمدن الكبرى، نتج عنها انخفاض حاد في عدد السكان، وانتشار التهجير والمجاعات والأوبئة، وانهيار البنية الزراعية والتجارية، وتحول مناطق واسعة إلى أطلال خالية، واستُهدف العلماء والفقهاء والقضاة بالقتل، مما أدى إلى انقطاع الحركة العلمية والثقافية في العاصمة، وشمل التغيير أيضًا الاستيلاء على الأراضي والممتلكات وتحويلها إلى إقطاعيات للقادة المغول، مما غيّر ملكية الأرض والنظام الاقتصادي، ورافق ذلك تدهور بيئي واسع بسبب تخريب شبكات الري وإحراق الغابات وتلوث الأنهار .أما من ناحية المقاومة، فقد شهدت مدن مثل: واسط والحلة والموصل وأربيل مقاومة بطولية، وتصدى العلماء والفقهاء فكريًا بإصدار الفتاوى التي دعت للجهاد ضد المغول، في حين اتخذ بعض التجار وأهل الذمة مواقف متعاونة مع الغزاة .وتخلص الدراسة إلى أن الغزو المغولي أحدث تحوّلًا ديموغرافيًا واقتصاديًا طويل الأمد في العراق، وأدى إلى نهاية الخلافة العباسية وبداية مرحلة جديدة من التغير السياسي والاجتماعي، وشكّل دافعًا لنهضة مقاومة إسلامية لاحقة قادها المماليك الذين تمكنوا من وقف المد المغولي.

الكلمات المفتاحية: الأثر، الديموغرافي، المجتمع العراقي.

Al Malweah
for Archaeological
and Historical Studies

Vol 13, Issue 43, Feb 2026
P-ISSN: 2413-1326
E-ISSN: 2708-602X

The Demographic Impact of the Mongol Invasion on Iraqi Society

Dr. Hussein Ghassan Jaber Al-Anbaki
The General Directorate of Education in Diyala

Abstract:

This research examines the demographic change and the impact of the Mongol invasion on Iraq during the 13th century (7th century AH). The invasion was not merely a military conquest but a catastrophic event that transformed the demographic, economic, social, and cultural structures of the Abbasid state. The Mongols committed massacres in Baghdad and other major cities, leading to a sharp population decline, forced migrations, famine, and widespread disease. The destruction of irrigation systems and farmland caused a severe collapse in agriculture and trade, while scholars, jurists, and intellectuals were executed, halting the city's scientific and cultural activity. Additionally, the Mongols confiscated lands and properties, distributing them to their nobles, which reshaped Iraq's ownership system and economy. The invasion also caused environmental devastation through deforestation, the burning of fields, and the pollution of rivers. Despite this, several Iraqi cities—such as Hillah, Wasit, Mosul, and Erbil—mounted strong resistance. Scholars and religious leaders issued fatwas urging jihad against the invaders, even as some merchants and non-Muslim communities cooperated with the Mongols. The study concludes that the Mongol invasion caused a long-term demographic and economic transformation in Iraq, marking not only the fall of the Abbasid Caliphate but also the beginning of a new era in the region's history. It also laid the groundwork for the later Islamic military resurgence led by the Mamluks, who eventually halted Mongol expansion.

Keywords: impact, demographics, Iraqi society.

المقدمة:

يُعد الغزو المغولي للعراق في القرن السابع للهجرة/ الثالث عشر للميلاد، من أعنف الكوارث التي حلت بالمنطقة، إذ لم يقتصر أثره على الجانب السياسي والعسكري فحسب إنما امتد ليشمل التركيبة السكانية، والبنية الاقتصادية، والاجتماعية والثقافية للدولة العباسية وقتئذٍ، ولم يكن ذلك الغزو مجرد حملة عسكرية هدفها التوسع، بل كان حدثًا مفصليًا هز كيان الحضارة الإسلامية، ولاسيما في العراق، قلب الدولة العباسية ومركز إشعاعها العلمي والثقافي والاقتصادي، وأدى هذا الغزو إلى تدمير شامل في مختلف نواح الحياة، وبالأخص على المستويات السكانية والاقتصادية والاجتماعية، وترتب عليه تغيّرات ديموغرافية كبيرة، أبرزها التراجع الحاد في أعداد السكان، والتشريد والتهجير، وانهيار البنية الاقتصادية، التي كانت تعتمد على الزراعة والصناعة والتجارة، فضلًا عن الكثير من واردات بيت المال الخاص بالدولة العربية الإسلامية.

وفي هذا البحث، نسلّط الضوء على أهم التغيرات الديموغرافية التي أعقبت الغزو، ونتأمل في آثار هذا الحدث التاريخي المهم، على الاقتصاد الإسلامي بالعراق في تلك الحقبة، مستندين إلى مصادر ومراجع تاريخية كثيرة، مقارنين بين الوضع قبل الغزو وبعده.

أولًا: تعريف الأثر، والديموغرافيا:

الأثر هو: ما بقي من رسم الشيء(ابن منظور، 1949، ص69)، أما الديموغرافيا فهي: العلم الذي يعنى بدراسة السكان، وبالأخص حجمهم وتوزيعهم، وما يطرأ على هذا الحجم والتوزيع من تغيير، وصفات السكان ومدى اختلاف هذه الصفات بين مجتمع وآخر، وأثر كل ذلك على السكان(عبد الحميد، 2007، 795).

ثانيًا: التغيرات الديموغرافية بالقتل والتهجير والتخريب:

أدى الغزو المغولي إلى تغييرات كارثية في التكوين السكاني في العراق، من أبرزها: انخفاض عدد السكان نتيجة المجازر الجماعية التي ارتكبتها القوات المغولية الغازية، ولاسيما في بغداد وغيرها من مدن العراق الكبرى، مما أدى إلى ارتفاع معدلات الوفيات، وهجرة السكان من المناطق الحضرية المدمرة إلى الأرياف أو إلى المناطق الأكثر أمنًا في أطراف الدولة العربية الإسلامية، فساعد ذلك في انتشار المجاعة

والأمراض، واندثار قرى كاملة نتيجة التدمير الكامل للبنى التحتية فيها، إذْ أصبحت المناطق الزراعية أشبه بالخالية من السكان، وتحولت مدن مزدهرة وعامرة إلى أخرى مدمرة بالكامل(السيوطي، 2000، 131/1).

في بداية سنة (656هـ/1258م)، وصل هولاكو مدينة بغداد بجيشه، فخرج الدويدار(الدويدار: على ما يبدو أنها كانت رتبة عسكرية عالية في الجيش العباسي)، بالعسكر والتقى طلائع هولاكو فانكسر الجيش العباسي، وبمشورة ابن العلقمي(ابن العلقمي: محمد بن محمد بن علي، أبو طالب الوزير مؤيد الدين البغدادي الرافضي، وزير المستعصم؛ ولي الوزارة أربع عشرة سنة فأظهر الرفض قليلًا، وكان وزيرًا كافيًا خبيرًا بتدبير الملك، ولم يزل ناصحًا لأصحابه. (الكتبي، 1974، 252/3)، خرج الخليفة المستعصم(640-656هـ/1242-1258م)، في أعيان دولته وأكابرهم؛ ليحضروا عقد الصلح مع هولاكو(السيوطي، 2000، 333/1)، لكنه غدر بهم جميعًا، وضُربت رقابهم وقتلوا الخليفة ودخل المغول إلى بغداد، واقتسموها وكل أخذ ناحية، واستمر السيف يعمل بهم أربعون يومًا وقلَ مَنْ سلم، فبلغ القتلى ألف ألف وثمانمئة ألف وزيادة(الديار بكري، 1986، 376/3)، حتى وإن كان في هذا العدد بعض المبالغة إلا أنه يوحي بأن القتل كان كثيرًا وقد شمل كل فئات المجتمع البغدادي وبالأخص الرجال منهم.

إذ بلغ من استخفافهم في القتل وسفك الدماء حد الفضاعة، فيروى أن أحدهم دخل إلى احدى محلات بغداد وقتل أربعين طفلًا، من دون شفقة أو رحمة منه عليهم حين علم أن أمهاتهم قتلت من قبل(الصياد، 1986، 265/1)، ولم يسلم من القتل إلا مَنْ اختبأ ببئر أو قناة، واندلعت ألسنة النيران في كل ناحية من نواح بغداد فالتهمت كل ما صادفها من الأخضر واليابس، إذ خربت غالب الأبنية وجامع الخليفة ومشهد الامام موسى الكاظم (عليه السلام)، وقبور الخلفاء في الرصافة(الصياد، 1986، 265/1).

وعن هذا الموضوع قال ابن كثير: "خرج الخليفة في سبعمائة راكب من القضاة والفقهاء والصوفية ورؤوس الأمراء والدولة والأعيان، فلما اقتربوا من منزل هولاكو خان حجبوا عن الخليفة إلا سبعة عشر نفسًا، فخلص الخليفة بهؤلاء المذكورين ، وأنزل الباقون عن مراكبهم ونهبت وقتلوا عن آخرهم، ومالوا على البلد فقتلوا جميع مَن قدروا عليه من الرجال والنساء والولدان والمشايخ والكهول والشبان ودخل كثير من الناس في الآبار وأماكن الحشوش، وقني الوسخ، وكمنوا كذلك أيامًا لا يظهرون، وكان الجماعة من الناس يجتمعون إلى الخانات ويغلقون عليهم الأبواب، فتفتحها التتار إما بالكسر وإما بالنار، ثم يدخلون عليهم فيهربون منهم إلى أعالي الأمكنة فيقتلونهم بالأسطحة، حتى تجري الميازيب من الدماء في الأزقة وكذلك في المساجد والجوامع والربط"(ابن كثير، 1987، 234/13-235). إن المتأمل في هذه الرواية التي ذكرها ابن كثير يرى أن عمليات القتل والتهجير التي قام بها المغول التتار لم تكن بالصدفة بل كانت ممنهجة ومخطط لها وفق أهداف معدة مسبقًا، إذْ سعى المغول فيها إلى اجراء تغيير في التركيبة السكانية للمجتمع في بغداد وبفئاته وطبقاته كافة وذلك بالقتل والتهجير حتى يحل التتار محلهم؛ لذا لم يستثنوا أحدًا من القتل والتهجير،

فقتلوا الصغير والكبير والرجل والمرأة والعالم والجاهل، وكل هؤلاء كانوا سواء، وهذا هو التغيير الديموغرافي بحد ذاته الذي جرى في بغداد وقتئذْ.

وعندما مضت الأربعون يومًا بقيت مدينة بغداد خاوية على عروشها، ليس فيها أحد إلا الشاذ والمتواطئ من الناس، والقتلى في الطرقات كأنها التلول، ولما نودي في بغداد بالأمان خرج من تحت الأرض مَنْ كان بالمطامير والقنى والمقابر كأنهم الموتى إذا نبشوا من قبورهم، وفتكت بهم الأوبئة والأمراض القاسية فماتوا ولحقوا بمن سبقهم من القتلى، إذ عادت بغداد بعد ما كانت آنس وأفضل المدن كلها كأنها خراب ليس فيها إلا قليل من الناس ، وهم في خوف وجوع وذلة وقلة(ابن كثير، 1987، 234/13)، اما اهل الكوفة والحلة فنزحوا الى البطائح بعوائلهم وما استطاعوا حمله من الأموال خلال حصار بغداد ، في حين أن اهل واسط اختاروا سبيل المقاومة ، فقتل المغول منهم ما يقرب من أربعين ألفًا (خصباك، 1968، ص57)، وهذه الارقام حتى وإن شابها نوع من المبالغة إلا أنها توحي وتدل على مدى قوة وبسالة أهل مدينة واسط في تصديهم ومقاومتهم للغزو المغولي في تلك الحقبة .

أما مدينة الموصل فلما دخلها المغول (سنة 660هـ/1264م)، فإنهم استباحوها وقتلوا غالب أهلها ، أخذ كثير منهم أسارى حتى اصبحت المدينة خالية من السكان (خصباك، 1968، ص57) ، ومن بين الذين قتلوا صاحب الموصل الملك الصالح وابنه علاء الدين وإخوته وأقاربه ،ثم توجهت القوات الغازية الى جزيرة ابن عمر ، فاستولت عليها وقتلت حاكمها واستعملت عليها رجلًا مسيحيًا، وهكذا خضعت غالب المدن والمناطق لسيطرة المغول، وقتل عدد كبير جدًا من سكانها ودمرت أجزاء واسعة منها ، وقتل غالب افراد الأسرة العباسية المتواجدين في بغداد فيما عدا القليل منهم ،الذين استطاعوا الفرار والنجاة ، ومن بينهم احمد بن الظاهر(احمد بن الظاهر : المستنصر بالله أبو القاسم أحمد بن الظاهر بأمر الله محمد بن الناصر لدين الله العباسي الأسود قدم مصر وعقد له مجلس فأثبتوا نسبه، ثم بدأ الملك الظاهر بمبايعته ثم الأعيان على مراتبهم ولقب بلقب أخيه صاحب بغداد ثم صلى بالناس يوم الجمعة. (الذهبي، 1985، 258/5)، الذي ذهب الى الظاهر بيبرس(اليونيني، 1960، 94/2)، وبعد ان لجأ هولاكو إلى محو آثار العائلة العباسية فألقى كثير منهم في السجون وأضحى الخطر يهدد كل من يردد ذكرهم ، فتهشم الاساس الذي قامت عليه الدولة العباسية ، فلم تعد دولة اسلامية دينية بعد أن ألغى الاستعمار المغولي ذلك الأساس ،إذ جعل الأديان ومن ضمنها الوثنية ديانات متساوية في الحقوق والواجبات أمام السلطات المغولية (خصباك، 1968، 57)، وهنا يتضح لنا حجم الدمار والتغيير الكبير الذي ألحقه هولاكو ببغداد عن طريق الرسائل التي ارسلها إلى الناصر صاحب دمشق يحذره فيها إن قاومه أن يفعل به مثلما فعل ببغداد وأهلها، وجاء في هذه الرسالة " أما بعد : فإنا فتحنا بغداد، واستأصلنا مُلكها ومَلِكها ونحن قد اهلكنا البلاد، وأبدنا العباد ، وقتلنا النسوان

والأولاد، وأهلكنا العباد وأذقناهم العذاب، وجعلنا عظيمهم صغيرًا، وأميرهم أسيرًا" (السيوطي، 2000، 333/1).

ثالثاَ: التغيير الديموغرافي الذي استهدف العلماء والفقهاء والقضاة:

لم تستثنِ المجزرة التي اقامها المغول في بغداد العلماء والفقهاء بل حتى الذين خرجوا بأمان إلى معسكر هولاكو سيقوا للذبح (ابن الفوطي، 1963، ص195) ، حتى اصبحت بغداد ولم يبقَ فيها مَنْ يعرف شيئًا من العلم، ففي شهر صفر من سنة (156 هـ /772م) ، خرج الخليفة من بغداد ومعه أبناؤه وما يقرب من ثلاثة آلاف من الائمة والسادات والقضاة والأكابر والاعيان ، فلما وصلوا إلى هولاكو الذي أعطاهم الامان ، فطلب هولاكو من الخليفة أن يأمر الناس أن يلقوا اسلحتهم ولهم الامان ، وإن يريد أن يحصي عددهم فأمر الخليفة العباسي بأن يلقوا الاسلحة ، فلما ألقوها وخرجوا من المدينة كان جيش التتار يقتلهم عند خروجهم فقتلوا جميعًا ، اما الذين بقوا من الناس في المدينة فأمر هولاكو الخواجة نصر الدين أن يقف عند باب الخليفة ويعطي للناس الامان لكي يخرجوا فخرج الناس على شكل جماعات كثيرة ، ولم يبقَ فيها من القضاة والعلماء غير تقي الدين الجوسقي الذي نجا منهم ولم يستطع البقاء فهاجر فرارًا بدينه وعلمه إلى البلدان المجاورة، واستقر بالشام وبعدها بالقاهرة(الكتبي، 1974، 232/2)، وأيضًا هاجرت أقوام بأكملها من ديارهم فرارًا من المغول، وقصدت بلاد الشام ومصر وتفرقت في أرجاءها واستقرت هناك(العمري، 2010، 367/27)، وقد فرغت بغداد من السكان إلا القليل بعد أن أصابها الكثير من الخراب والدمار.

لذا وصف الشيخ الكازروني بغداد بعد نكبتها وخلوها من سكانها وصفًا دقيقًا، إذْ أشار إلى مدى التغيير الديموغرافي الذي حصل وحجم الجلاء الذي تعرضت له هذه المدينة في تلك المدة أو الحقبة من الزمن، بحيث شمل هذا التغيير مجالات الحياة كافة، سواء على الجانب السكاني أو العمراني أو كليهما، إذْ قال: "وافيتها بلدة خالية وأمة جالية، ودمنة حائلة ومنحة جاثمة، وقصور خاوية، وعراصًا باكية، قد رحل عنها سكانها، وبان عنها قطانها، وتمزقوا في البلاد، ونزلوا في كل واد، وقصورها المشيدة مهدومة، ونعماؤها مسلوبة معدومة، موحشة لفقد قطانها، باكية بلسان الحال على سكانها". وطال التغيير الديموغرافي بالقتل والتشريد جميع أهل بغداد، استثني من ذلك النصارى والتجار الذين كان لديهم فرامين حماية من الأمراء التتار، وبعض المنازل القليلة جدًا، وما عداها فإنه لم يسلم منهم أحد، لذا احرق معظم البلد واستولى الخراب على البلاد(القزاز، 1970، ص106)، ومما سبق نستنتج أنه لم يبقَ أحد من أهل بغداد إلا الذين حصلوا على الأمان من قبل المغول التتار، مثل: المسيحيين وبعض التجار وكذلك بعض رجالات الدولة العباسية الذين كان لهم صلة مع القوات الغازية مثل: ابن العلقمي وغيره، ممن ساهموا في سقوط بغداد.

رابعًا: التغيير الديموغرافي للزراعة والموارد الاقتصادية الأخرى:

أثر الغزو بشكل مباشر على الثروة الزراعية والموارد الطبيعية التي كانت تشكل أساس الاقتصاد للدولة العباسية، فقام المغول بتخريب أنظمة الري وذلك بتدمير السدود والقنوات، مما أدى إلى جفاف الأراضي الزراعية، وهجرة الفلاحين من أراضيهم؛ بسبب انعدام الأمن والخراب الذي طال مزارعهم، مما تسبب في ترك مساحات شاسعة غير مزروعة، وأدى ذلك كله إلى انخفاض الإنتاج الزراعي فأدى ذلك إلى النقص في الغذاء وتفاقم المجاعة وحدوث الأوبئة والأمراض(ابن كثير، 1987، 277/13).

إذْ لم تكن الآثار الاقتصادية للغزو المغولي مقتصرة على التركيبة السكانية والأراضي والمحاصيل الزراعية فحسب، بل امتدت لتشمل قطاعات الحياة الاقتصادية كافة، والتي منها تدمير الأسواق المركزية ونهب التجار وتوقف حركة التجارة الداخلية والخارجية، وقتل أصحاب المهن والحرفيين والصناع، وانهيار نظام الوقف، مما أضعف المؤسسات الدينية والاجتماعية التي كانت تقدم خدمات التعليم الديني وغيره من العلوم الأخرى، واختفاء المؤسسات المالية مثل: دور الصرافة والمبادلات النقدية، مما أدى إلى فوضى اقتصادية كبيرة، إذْ اختلف التأثير بين المناطق، إذ تضررت المدن الكبرى بشكل مباشر، في حين عانت الأرياف من العزلة والحرمان، مما أدى إلى انتشار البطالة نتيجة لانهيار البنية الحرفية والصناعية(القلقشندي، 1967، ص423).

وكذلك ظهر اقتصاد غير رسمي قائم على الغنائم، والجباية العشوائية وغير الشرعية، وتغير الاقتصاد العراقي، إذ بدأ التدهور الاقتصادي ينتقل إلى مناطق لم تتعرض للغزو بالحدة نفسها.

أما من جانب البيئة، فساهم الغزو المغولي بالتغيير الديموغرافي البيئي الذي كانت له تبعات بيئية سلبية شديدة، بحيث قاموا بتدمير الغابات وحرقها وقطع الأشجار لاستعمالها في التحصينات العسكرية أو الوقود، مما أدى إلى تراجع الغطاء النباتي، وكذلك جفت الأنهار الفرعية؛ بسبب تخريب السدود والقنوات وتراكم الطمي، التي أدت بالتالي إلى تدهور المراعي وهجرة القبائل الرعوية إلى مناطق أخرى بعيدة عن الخطر المغولي بحثًا عن الماء والمرعى، وتلوثت التربة؛ لعدم العناية بالأراضي الزراعية وأدى ذلك إلى تملّح التربة وتآكلها، مما جعلها غير صالحة للزراعة لعدة سنوات، وأيضًا تلوثت المياه؛ نتيجة تراكم الجثث وعدم وجود جهة صحية للتعامل معها(خصباك، 1968، ص104).

خامسًا: التغيير الديموغرافي بالمصادرة والتمليك:

إن أبرز الأعمال التي قام بها المغول في عمليات التغيير الديموغرافي، هو اقطاعهم الكثير من الأراضي والقرى الواسعة والكبيرة جدًا لأقاربهم وأمرائهم، بعد أن قاموا بمصادرتها من أصحابها الشرعيين، ففي سنة (680هـ/1281م)، نزل الأمير منكوتمر(منكوتمر: بن هولاكو بن تولى بن جنكزخان، المغُلي، كان ذا شجاعة وإقدام وسفكٍ للدماء وجراءة على الله وعلى عباده توفي سنة681هـ/1282م). (الذهبي، 1985، 460/5)، الذي نزل جزيرة ابن عمر(جزيرة ابن عمر: هي بلدة فوق الموصل بينهما ثلاثة ايام تحيط بها دجلة الّا من ناحية واحدة فعمل هناك خندق اجرى فيه الماء فأحاط بها الماء من جميع جوانبها. (ابن العبري، 1992، 261)، وكان أبوه قد أقطعها لأمه(المقريزي، 1997، 150/2).

ولما جاء اباقا خان(آباقا خان: هو ابن هولاكو، تولى حكم الإيلخانيين في بلاد فارس والعراق سنة(663هـ/1264م)، وتوفي سنة (680هـ/1281م). (ابن الفوطي، 1963، 28/2)، إلى العراق سنة (672هـ/1273م)، أقطع المحول، في بغداد إلى بلغان خاتون، وكان لكل طائفة من العسكر المغولي أرض؛ لنزولهم يتوارثها الخلف عن السلف، منذ أن ملك هولاكو البلاد وأقاموا فيها منازلهم(القلقشندي، 1967، 423)، إذْ كانت تلك الاقطاعات التي أقطعها السلاطين المغول لأفرادهم وأمرائهم هي اقطاعات تمليك (خصباك، 1968، ص104)، وهنا تشير هذه الروايات إلى التغيير الديموغرافي الواضح بالسيطرة والاستيلاء على الأراضي التي تعود ملكيتها للعراقيين، التي تم فيما بعد تحويل ملكيتها لصالح المغول التتار بالقوة والإجبار.

ولم يكتفِ الغزاة المحتلون بمصادرة الكثير من الأراضي وتمليكها لصالح أمرائهم ورجال دولتهم فحسب، بل قاموا بإقطاع وتمليك المؤسسات والمساجد والربط ودور الموظفين، فقد أنعم هولاكو على الجاثليق(الجاثليق: رئيس للنصارى في بلاد الاسلام بمدينة السلام، ويكون تحت يد بطريق أنطاكية، ثم المطران تحت يده، ثم الاسقف يكون في كل بلد من تحت المطران، ثم القسيس، ثم الشماس. (الدنيوري، 1960، 312/1)، بدار علاء الدين الطبرسي، الواقعة على شاطئ نهر دجلة، فسكنها ودق ناقوسها في أعلاها، واستولى على دار الفلك التي كانت رباطًا للنساء، وكذلك استولى على الرباط البشيري المجاور لها، وأزال الكتابة العربية الموجودة على البابين وأبدلها بالكتابة السريانية.

سادسًا: المقاومة العربية للتغيير الديموغرافي والخطر المغولي على العراق:

سقطت بغداد بيد المغول سنة (656هـ/1258م)، وعلى الرغم من انتشار أنباء عن القوة التي استعملها الاحتلال المغولي، فقد شهدت مدن عراقية عدة مثل: الحلة وواسط وأربيل والموصل، مقاومة عسكرية للمغول التتار، إذْ قاوم أمير الحلة شمس الدين سلار، إلا أن مقاومته لم تدم طويلًا؛ إذْ هرب على إثر احتلال بغداد، بقسم من قواته، وجيش مدينة تسترتستر: اعظم مدينة بخوزستان، معرب شوشتر، ومعناه التفضيل في الطيب والنزهة، وهي مركز تجاري مهم، وسكانها شيعيون من العرب والايرانيين، وقد سميت بلدهم بدار المؤمنين؛ لشدة ورعهم. وإليها ينسب سهل التستري من علماء الصوفية. (الدنيوري، 1960، 130/1)، ظنًا منه أنه يستطيع محاربة المغول، ولكن خاب ظنه فلجأ إلى الحجاز (عبدالله، 1968، ص84).

أما واسط التي وصلها جيش المغول بعد احتلال بغداد، فقد قاومت الجيش المغولي ولكن تفوق المغول العددي رجح كفتهم مع ذلك استبسلت المدينة في دفاعها، وقدمت ما يقرب من أربعين ألف شهيد قبل أن تعلن خضوعها(الهمذاني، د.ت، 296/1).

أما مدينة أربيل فقد حذت حذو بغداد وواسط في الدفاع عن المدينة بوجه الغزو المغولي، إذْ عهد هولاكو إلى قائده أرقيوفويان، باحتلال أربيل، ونتيجة صمود المدينة عجز القائد المغولي من احتلالها، على الرغم من محاولة حاكمها تاج الدين بن صلايا اقناع الأهالي بتسليم القلعة له، إذْ قوبلت مساعيه بالرفض ولم يسمح له المدافعون عن القلعة بالدخول، فأرسله قائد الجيش المغولي إلى هولاكو الذي قام بقتله؛ لعدم تمكنه من اقناع أهالي أربيل بتسليم القلعة للمغول(عبدالله، 1968، ص84)، واضطر القائد المغولي بعد أن استعصى عليه تحقيق أي تقدم لاقتحام القلعة إلى طلب المساعدة من بدر الدين لؤلؤ(بدر الدين لؤلؤ: بن عبد الله الموصلي الأمير صاحب الموصل. (ابن الفوطي، 1963، 330/2)، فأرسل له عددًا كبيرًا من الجنود ولكن من دون جدوى، وفي المقابل فقد تمكن أهل القلعة من شن غارة ليلية على المغول وقتلوا كل مَنْ وجدوه ثم أشعلوا النار في المنجنيقات أحرقوها وعادوا إلى القلعة(المقريزي، 1997، 475/2).

ولما عجز القائد المغولي من كسر حدة المقاومة العسكرية للمدافعين عن القلعة، طلب النجدة والمشورة من صاحب الموصل بدر الدين لؤلؤ، فأشار عليه بالاستمرار في حصار المدينة حتى الصيف؛ إذْ يلجأ سكان المدينة إلى الجبال هربًا من الحر، فعمل بذلك، وأخيرًا سلمها القائد المغولي إلى صاحب الموصل بدر الدين لؤلؤ فهدم أسوارها واستولى عليها(الهمذاني، د.ت، 298/1).

وأما الموصل فإن أميرها قد دخل في طاعة المغول، وأمد هولاكو بالسلاح، ولكنه بقي يراسل الخليفة المستعصم بالله(640-656هـ/1242-1258م)، سرًا ويحذره منه، وبعد واقعة بغداد حضر عند هولاكو فأحسن استقباله؛ لكبر سنه ولضعفه، وأقره وأبقاه على امارة الموصل(خصباك، 1968، ص57-58)، لكنه

مات بعد ذلك، وتولى الحكم ولده الملك الصالح اسماعيل، الذي أعلن الثورة على المغول سنة (659هـ/1260م)، فأرسل له هولاكو جيشه، فضرب حصار حول المدينة، ونصب المجانيق على أسوارها، وأبلى أهل الموصل وأميرهم في القتال بلاءً حسنًا، وصمدوا لمدة شهر بوجه المغول(المقريزي، 1997، 475/2)، وبسبب عدم تمكن القوات المغولية من احتلال المدينة، أرسل هولاكو تعزيزات عسكرية إلى قواته، فاضطر الملك الصالح(الملك الصالح: إسماعيل بن نور الدين محمود بن زنكي بن اقسنقر صاحب حلب. (ابن شداد، 1991، ص217)، إلى طلب النجدة من صاحب حلب وصاحب مصر(الدواداري، 1982، ص88).

وهنا استجاب حاكم مدينة حلب شمس الدين البرلي وجاء على رأس جيش لنجدة الموصل، وعندما علم قائد الجيش المغولي بقدوم جيش حلب، أرسل قوة كبيرة إلى سنجار(سنجار: مدينة مشهورة من نواحي الجزيرة الفراتية. (الدنيوري، 1960، 297/1)، للتصدي لجيش حلب، ودارت معركة سنة(660هـ/1261م)، وانتهت المعركة بهزيمة جيش حلب ومقتل غالب جنده(الدواداري، 1982، ص88-89)، وبهذا أصبح على المدينة أن تعتمد على نفسها وعلى امكاناتها الذاتية في الدفاع عن الموصل، التي طال حصارها، واستعصت على المهاجمين، ولما علم القائد المغولي أن القتال لا يجدي نفعًا، انتظر حتى نفدت المؤنة من المدينة وتعذرت عليها الأقوات، إذْ أكل أهلها الميتة ولحم الكلاب والقطط، فأضطر أميرها إلى طلب الأمان له ولأهل المدينة، فأجابه القائد المغولي إلى طلبه، وعندما خرج إليه قبض عليه وعلى ولده، ثم قتل ولده المسمى بعلاء الملك وأرسل بالملك الصالح أمير الموصل وأخيه الملك الكامل إلى هولاكو، فأمر بالأول وكان غضبه عليه شديدًا فسلخ وجهه وهو حي، ثم قتل أخاه وكان طفلًا.

ثم دخل الجيش المغولي إلى الموصل سنة(660هـ/1261م)، فقتل معظم أهلها، وأخذ كثير منهم أسرى حتى خلت المدينة من السكان، ولما انتهت استباحتها ورحلت الجيوش المغولية عنها، عاد إليها مَنْ كان مختبأ من أهلها في الجبال والمغارات(الهمذاني، د.ت، 299/1-300)، وهكذا قاومت الموصل والجزيرة الفراتية، الاحتلال المغولي، ولو قُدر للمساعدات العربية أن تصل إلى المدافعين عنها، لاستعصى على المغول دخولها(الحلو، 1987، 76).

سابعًا: موقف عامة الشعب من التغيير الديموغرافي والخطر المغولي:

1- موقف العلماء:

إن العلماء والمفكرين قد حذروا من خطورة الغزو المغولي، وفي مقدمتهم المؤرخ الكبير ابن الأثير(ت630هـ/1232م)، الذي وصف تلك السنين بالبشعة، وكره ذكرها وعظم عليه تدوين أحداثها؛ لما

فيها من ظلم وجور للمسلمين، حتى قال: "فيا ليت أُمي لم تلدني، ويا ليتني مت قبل حدوثها وكنت نسيًا منسيًا "(ابن الاثير، 1966، ص333).

ومن المواقف المهمة والمشهورة للعلماء ضد الغزو المغولي، هو اصدار الفتاوى التي أعطت المسوغ الشرعي للوقوف بوجه الأعداء، وحثت المسلمين على الجهاد، فلما توجهت القوات الغازية تجاه بغداد، واستمرت في زحفها شمالًا، حتى وصلت مشارف مدينة سامراء سنة(635هـ/1237م)، إذ شعر الخليفة المستنصر بالله(623-640هـ/1226-1242م)، بالخطر، فأعلن الجهاد بعد أن جمع مجموعة من العلماء في مجلس لهم، فأفتوا بأن الجهاد في سبيل الله أفضل من الحج إلى بيت الله، فاجتمع جيش كبير من عامة الشعب، وفي سنة (633هـ/1235م)، قصدت القوات المغولية الموصل وعاثوا فيها قتلًا ونهبًا وأسرًا، فاستنفر الشعب من أهالي بغداد ومن الأعراب الذين ينتشرون في بوادي العراق ومن جميع الأعمال، فاجتمعوا ووزعت عليهم الأسلحة والأموال، وجعل على مقدمة العسكر الأمير جمال الدين قشتمر(قشتمر: الأمير جمال الدين الناصري المستنصري، مقدم الجيوش الإمامية، كان أميرًا، جليل القدر، مهيبًا، وقورًا، كثير الصدقات والمعروف (ت637 هـ/1239م). (الذهبي، 1985، 247/5)، وعندما علم المغول بهذا الجيش أو العسكر، عادوا إلى بلادهم وعاد العسكر إلى بغداد(ابن كثير، 1987، 169/13).

أما من الناحية السياسية، فلما وصل المغول إلى أطراف بغداد، أرسل الخليفة المستعصم (640-656هـ/1242-1258م)، الفقهاء إلى هولاكو؛ للتفاوض معه ومحاولة اقناعه بعدم الدخول إلى بغداد، وبالتالي حذر الفقهاء الخليفة العباسي من نية هولاكو وعزمه واصراره على دخولها والسيطرة عليها.

2- موقف التجار:

كان لبعض التجار موقف سلبي من التسلط الأجنبي، ولاسيما أولئك الذين تربطهم مصالح خاصة مع الأجنبي، وكانوا يقدمونها على المصالح العامة للأمة، لذا نجد أن المغول قاموا برعاية مصالح هؤلاء التجار في أثناء اجتياحهم لمدينة بغداد، لذا أصبحت بيوتهم مكانًا آمنًا لمَن يحتمي بها ولاسيما تجار أهل الذمة، ومن أبرز التجار الذين تعاونوا مع المغول هو عز الدين الخرداذي(الخرداذي: عزّ الدين مقلّد بن صفي الدين أحمد التاجر، كان من التجار الكبار، وخرج من بغداد وانتزح إلى بلاد فارس وكان كثير المال. (ابن الفوطى، 1963، 351/1)، وحصل البعض من تجار بغداد على فرمان حماية وحرس على بيوتهم، بعدما ارتبطوا ارتباطًا وثيقًا ومباشرًا بأمراء وقادة الجيش المغولي، وهنا يتضح لنا حجم التخاذل والخيانة من قبل كثير من تجار بغداد، وهذا يعدّ -بحد ذاته- اختبارًا لتلك الطبقة من المجتمع؛ لكي يعبروا ما بداخلهم من سعي وراء الدنيا وملذاتها وترك الآخرة، وما تدعو إليه الشريعة الإسلامية للجهاد في سبيل الله وسبيل الدين الإسلامي.

Vol 13, Issue 43, Feb 2026
P-ISSN: 2413-1326
E-ISSN: 2708-602X

3- موقف أهل الذمة:

أما موقف أهل الذمة من التسلط المغولي على بغداد، فعلى الرغم من المكانة الاجتماعية المرموقة التي كانوا يحضون بها في بغداد، إلا أنه لم يكن لهم الموقف الإيجابي من الغزو المغولي، بل على العكس من ذلك، إذ إنهم وقفوا إلى جانب المغول، ولبوا أغلب احتياجات الجيش المغولي عند مهاجمته لبغداد سنة (656هـ/1258م)، وحين اشتد بطش المغول بالعامة من الناس ولم يسلم منهم حتى النساء والأطفال، نجد المغول يضعون الحراس على بيوت ومنازل أهل الذمة من اليهود والنصارى، واعطائهم الأمان، إلى درجة أن البعض من المسلمين قد لجأوا إلى بيوت أهل الذمة؛ هربًا من بطش المغول وظلمهم(الغساني، 1975، 575).

الخاتمة:

1- إن دراسة الغزو المغولي للعراق لا تمثل فقط تاريخًا لحدث عسكري دموي، بل هي تحليل معمق لانهيار حضارة كانت تشكل واحدة من أعمدة العالم الإسلامي، سواء من الناحية الاقتصادية أو الاجتماعية أو الثقافية.

2- بيّنت الوقائع التاريخية أن الغزو لم يقتصر على الدمار العمراني أو القتل الجماعي، بل أحدث تحولًا ديموغرافيًا خطيرًا تمثل في تناقص عدد السكان، وانقراض قرى وأحياء، وظهور هجرات داخلية وخارجية قلبت التوزيع السكاني للعراق لعدة قرون.

3- من الناحية الاقتصادية، أدّى الغزو إلى تفكك البنية الاقتصادية المركزية، وانهيار شبكات التجارة، وتراجع الإنتاج الزراعي والصناعي، مما أدى بالتالي إلى تدهور ودمار الاقتصاد بشكل عام في تلك الحقبة.

4- تبين بالبحث أن هذه المرحلة لم تكن مجرد نهاية العصر العباسي، بل كانت بداية لتغير طويل الأمد في هوية العراق السياسية والاقتصادية والديموغرافية، مما يجعل فهم هذه الحقبة ضروريًا لفهم حاضر العراق ومستقبله.

5- كان لكثير من المدن العراقية وكذلك العلماء والفقهاء، الدور الكبير في التصدي لهذا الغزو حتى وإن كان متأخرًا وبسيطًا، إلا أنه زرع في نفوس المسلمين أن التصدي لهذا الغزو ليس مستحيلًا، إذ ساهم في تشكيل قوة عسكرية في غالب البلدان الإسلامية، التي استطاعت ايقاف هذا الغزو وانهاءه بشكل كامل، وتلك القوة متمثلة بدولة المماليك في مصر.

قائمة المصادر والمراجع:

1. ابن الأثير، عز الدين أبو الحسن علي بن محمد .(1966) .الكامل في التاريخ .بيروت: دار صادر.
2. الحلو، صادق .(1987) .المقاومة العربية للغزو المغولي الإيلخاني للعراق 656هـ/1258م .بغداد: موسوعة الجيش والسلاح.
3. خصباك، جعفر حسين .(1968) .العراق في عهد المغول الإيلخانيين .بغداد: مطبعة العاني.
4. الدواداري، ابن أيبك أبو بكر عبد الله .(1982) .كنز الدرر وجامع الغرر (تحقيق: بيرند راتكة). القاهرة: المعهد الألماني للآثار.
5. الديار بكري، حسين بن محمد بن الحسين .(1986) .تاريخ الخميس في أحوال أنفس النفيس .بيروت: دار صادر.
6. الدينوري، أبو حنيفة أحمد بن داود .(1960) .الأخبار الطوال (تحقيق: عبد المنعم عامر). القاهرة: دار إحياء الكتاب العربي.
7. الذهبي، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز .(1985) .سير أعلام النبلاء (تحقيق: شعيب الأرناؤوطي وآخرون، ط3). القاهرة: مؤسسة الرسالة للنشر.
8. السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر .(2000) .تاريخ الخلفاء (تحقيق: حمدي الدمرداش). القاهرة: مكتبة نزار مصطفى الباز.
9. ابن شداد، يوسف بن رافع بن تميم بن عقبة الأسدي .(1991) .النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية (سيرة صلاح الدين الأيوبي) (تحقيق: جمال الدين الشيال، ط2). القاهرة: مكتبة الخانجي.
10. الصياد، فؤاد عبد المعطي .(1980) .المغول في التاريخ .بيروت: دار النهضة العربية.
11. عبد الحميد، أحمد مختار عمر .(2007) .مجمع اللغة العربية المعاصرة .القاهرة: عالم الكتب.
12. عبد الله، إيناس السعدي .(1968) .تاريخ العراق الحديث 1258–1918م .بغداد: دار ومكتبة عدنان.
13. العمري، أحمد بن يحيى بن فضل الله .(2010) .مسالك الأبصار (تحقيق: كامل سلمان الجبوري). بيروت: دار الكتب العلمية.
14. الغساني، الملك الأشرف إسماعيل بن العباس .(1975) .العسجد المسبوك والجوهر المحكوك من طبقات الخلفاء والملوك (تحقيق: شاكر محمود عبد المنعم). بغداد: دار البيان.
15. ابن العبري، أبو الفرج يوحنا بن هارون بن توما الملطي .(1992) .تاريخ مختصر الدول (تحقيق: انطون صالحاني اليسوعي). بيروت: دار الشرق.
16. ابن الفوطي، كمال الدين عبد الرزاق .(1963) .تلخيص مجمع الآداب في معجم الألقاب (تحقيق: مصطفى جواد). دمشق: وزارة الثقافة والإرشاد القومي.
17. القزاز، محمد صالح داود .(1970) .الحياة السياسية في العراق في عهد السيطرة المغولية .النجف الأشرف: مطبعة القضاء.
18. القلقشندي، أحمد بن علي بن أحمد .(1967) .صبح الأعشى في صناعة الإنشا .بيروت: دار الكتب العلمية.
19. الكتبي، محمد بن شاكر بن أحمد .(1974) .فوات الوفيات (تحقيق: إحسان عباس). بيروت: دار صادر.

20. ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر .(1987) .البداية والنهاية (تحقيق: علي شيري). القاهرة: دار إحياء التراث العربي.

21. ابن منظور، محمد بن مكرم الأفريقي المصري الأنصاري .(1949) .لسان العرب .القاهرة.

22. المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر .(1997) .السلوك لمعرفة دول الملوك (تحقيق: محمود عبد القادر عطا). بيروت: دار الكتب العلمية.

23. الهمذاني، رشيد الدين فضل الله. (دون تاريخ) .جامع التواريخ (تاريخ هولاكو) (تحقيق: فؤاد عبد المعطي وآخرون). القاهرة: دار إحياء الكتب العربية.

24. اليونيني، قطب الدين موسى بن محمد .(1960) .ذيل مرآة الزمان (تحقيق: وزارة التحقيقات الهندية). حيدر آباد: دار الكتاب الإسلامي.

List of sources and references:

1. Ibn al-Athir, ‘Izz al-Din Abu al-Hasan ‘Ali ibn Muhammad. (1966). Al-Kamil fi al-Tarikh. Beirut: Dar Sadir.
2. Ibn al-‘Ibri, Abu al-Faraj Yuḥanna ibn Harun ibn Tuma al-Malṭi. (1992). Mukhtasar al-Duwal (Edited by Anton Salhani al-Yasou‘i). Beirut: Dar al-Sharq.
3. Ibn al-Fuwati, Kamal al-Din ‘Abd al-Razzaq. (1963). Talkhis Majma‘ al-Adab fi Mu‘jam al-Alqab (Edited by Mustafa Jawad). Damascus: Ministry of Culture and National Guidance.
4. Ibn Shaddad, Yusuf ibn Rafi‘ ibn Tamim ibn ‘Uqba al-Asadi. (1991). Al-Nawadir al-Sultaniyya wa al-Mahasin al-Yusifiyya (Biography of Salah al-Din al-Ayyubi) (Edited by Jamal al-Din al-Shayyal, 2nd ed.). Cairo: Maktabat al-Khanji.
5. Ibn Kathir, Abu al-Fida’ Isma‘il ibn ‘Umar. (1987). Al-Bidaya wa al-Nihaya (Edited by ‘Ali Shiri). Cairo: Dar Ihya’ al-Turath al-‘Arabi.
6. Ibn Manzur, Muhammad ibn Mukarram ibn Manzur al-Ifriqi al-Misri al-Ansari. (1949). Lisan al-‘Arab. Cairo.
7. al-Hilu, Sadiq. (1987). Al-Muqawama al-‘Arabiyya li-l-Ghazu al-Mughuli al-Ilkhani li-‘Iraq 656H/1258AD. Baghdad: Encyclopedia of Army and Weapons.
8. Khasbak, Ja‘far Husayn. (1968). Al-‘Iraq fi ‘Ahd al-Mughul al-Ilkhaniyyin. Baghdad: al-‘Ani Press.
9. al-Dawadari, Ibn Aibak Abu Bakr ‘Abd Allah. (1982). Kanz al-Durar wa Jami‘ al-Ghurar (Edited by Bernd Ratke). Cairo: German Institute of Archaeology.
10. al-Diyar Bakri, Husayn ibn Muhammad ibn al-Husayn. (1986). Tarikh al-Khamis fi Ahwal Anfus al-Nafis. Beirut: Dar Sadir.
11. al-Dinawari, Abu Hanifa Ahmad ibn Dawud. (1960). Akhbar al-Tiwal (Edited by ‘Abd al-Mun‘im ‘Amir). Cairo: Dar Ihya’ al-Kitab al-‘Arabi.
12. al-Dhahabi, Shams al-Din Abu ‘Abd Allah Muhammad ibn Ahmad ibn ‘Uthman ibn Qaymaz. (1985). Siyar A‘lam al-Nubala’ (Edited by Shu‘ayb al-Arna’ut et al., 3rd ed.). Cairo: Mu’assasat al-Risala li-l-Nashr.
13. al-Suyuti, ‘Abd al-Rahman ibn Abi Bakr. (2000). Tarikh al-Khulafa’ (Edited by Hamdi al-Damardash). Cairo: Maktabat Nizar Mustafa al-Baz.

Vol 13, Issue 43, Feb 2026
P-ISSN: 2413-1326
E-ISSN: 2708-602X

14. al-Sayyad, Fu’ad ‘Abd al-Mu‘ti. (1980). Al-Mughul fi al-Tarikh. Beirut: Dar al-Nahda al-‘Arabiyya.
15. ‘Abd al-Hamid, Ahmad Mukhtar ‘Umar. (2007). Majma‘ al-Lugha al-‘Arabiyya al-Mu‘asira. Cairo: ‘Alam al-Kutub.
16. ‘Abd Allah, Inas al-Sa‘di. (1968). Tarikh al-‘Iraq al-Hadith 1258–1918AD. Baghdad: Dar wa Maktabat ‘Adnan.
17. al-‘Umari, Ahmad ibn Yahya ibn Fadl Allah. (2010). Masalik al-Absar (Edited by Kamil Salman al-Juburi). Beirut: Dar al-Kutub al-‘Ilmiyya.
18. al-Ghassani, al-Malik al-Ashraf Isma‘il ibn al-‘Abbas. (1975). Al-‘Asjad al-Masbuk wa al-Jawhar al-Mahkuk min Tabaqat al-Khulafa’ wa al-Muluk (Edited by Shakir Mahmoud ‘Abd al-Mun‘im). Baghdad: Dar al-Bayan.
19. al-Qazzaz, Muhammad Salih Dawud. (1970). Al-Hayat al-Siyasiyya fi al-‘Iraq fi ‘Ahd al-Saytara al-Mughuliyya. Najaf al-Ashraf: al-Qada’ Press.
20. al-Qalqashandi, Ahmad ibn ‘Ali ibn Ahmad. (1967). Subh al-A‘sha fi Sina‘at al-Insha’. Beirut: Dar al-Kutub al-‘Ilmiyya.
21. al-Kutubi, Muhammad ibn Shakir ibn Ahmad. (1974). Fawat al-Wafayat (Edited by Ihsan ‘Abbas). Beirut: Dar Sadir.
22. al-Maqrizi, Taqi al-Din Ahmad ibn ‘Ali ibn ‘Abd al-Qadir. (1997). Al-Suluk li-Ma‘rifat Duwal al-Muluk (Edited by Mahmoud ‘Abd al-Qadir ‘Ata). Beirut: Dar al-Kutub al-‘Ilmiyya.
23. al-Hamadhani, Rashid al-Din Fadl Allah. (n.d.). Jami‘ al-Tawarikh (Tarikh Hulagu) (Edited by Fu’ad ‘Abd al-Mu‘ti et al.). Cairo: Dar Ihya’ al-Kutub al-‘Arabiyya.
24. al-Yunini, Qutb al-Din Musa ibn Muhammad. (1960). Dhail Mir’at al-Zaman (Edited by Indian Department of Investigations). Hyderabad: Dar al-Kitab al-Islami.